معالم الحجّ الإبراهيمي

الشيخ علي فاضل الصدديّ

الحجّ الإبراهيميّ في صورته الموسّعة التي لا تقف عند شخص إبراهيم الخليل ـ على نبيِّنا وآله وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ (هذا الحجُّ) شخوصه وروّاده وأبطاله ثلاثة، أوّلهم إبراهيم عليه السلام، وثانيهم إسماعيل عليه السلام، وثالثهم هاجر عليها السلام، فلتكن نظرتنا للحجّ الإبراهيميّ نظرة مستوعبة لهؤلاء الثلاثة، بل أكثر من هذا إنّ الحجّ الإبراهيميّ ـ كما سيتّضح ـ ليس مشروعاً يقف عند فعل إبراهيم عليه السلام لهذا المشروع وإيجاده له، بل إبراهيم عليه السلام مكلّف برعاية هذا المشروع وأن يوصله يداً بيدٍ إلى الأجيال من بعده.

وهذا ما سنحاول تعرّفه من خلال الآيات التالية وغيرها، يقول الله سبحانه: ﴿**وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاء الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ**﴾.[1]

وذلك في عناوين سبعة:

العنوان الأول: ما هو الحجّ في نظر إبراهيم؟

العنوان الثاني: ما هو المشروع الإبراهيميّ؟

العنوان الثالث: قيمة العمل.

العنوان الرابع: النداء الإبراهيميّ.

العنوان الخامس: العامل الخالد.

العنوان السادس: الرجاء الأكيد.

العنوان السابع: لماذا الحجّ؟

❁ ❁ ❁

العنوان الأول :

ما هو الحجّ في نظر إبراهيم عليه السلام؟

الحجّ في صورته الساذجة هو عبارة عن زيارة بيت الله سبحانه، إلاّ أنّ الحجّ في

١. سورة الصافات : ٩٩ ـ ١١١ .

منظور إبراهيم عليه السلام أبعد من ذلك بكثير؛ لأنّه عليه السلام يرى أنّ هذا الحجّ هو هجرة إلى الله سبحانه، بحيث إذا نزل العبد ببيته نزل عنده تعالى، ونزل ضيفاً عليه سبحانه، وليس ذلك فحسب بل الحجّ في نظر إبراهيم في مضمونه الدقيق جداً هو هجرة إلى الربّ سبحانه، هذه الهجرة ـ الّتي اتخذ قرارها النبيّ إبراهيم عليه السلام إلى جوار بيت الله سبحانه ـ عبّر عنها بأنها هجرة إلى الربّ ﴿**إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي**﴾، وهذا يوقفنا على مَعْلَمٍ مهمّ ومُلْهِمٍ من معالم التوحيد، وهو توحيد الربوبيّة لله سبحانه.

وحريّ بنا أن نعرض بعض ما يتّصل بمظاهر التوحيد وأنحائه، وكيف أنّ التوحيد في مظاهره وأنحائه هو عبارة عن منظومة متكاملة، فالمؤمن بالله سبحانه ـ بما في ذلك أهل الشرك ـ يعتقدون بأنّ الخالق هو الله سبحانه، وقد قرّرهم الله على ذلك في قوله: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ**﴾،[1] ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ**﴾.[2]

ليسأل كلّ واحد منّا نفسه، هل خُلِقَ من غير شيء، ومن غير خالق؟ والجواب الفطري سيكون بالنفي. وهل بوسع أحدنا أن يدّعي أنّه قد أوجد نفسه؟ والجواب الفطري: كلاّ. فإذا هناك موجد، فمن هو؟ وهل ادّعى مدّعٍ غير الله أنّه الموجد والخالق؟ كلاّ، لم يدّع أحد ذلك إلاّ الله، وما نازع اللهَ أحدٌ في الخالقيّة.

وهذا مظهر من مظاهر التوحيد، وهو التوحيد في الخالقية، ويتفرّع عنه توحيد في الربوبية والتدبير لله تعالى. يقول الله تعالى: ﴿**قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾.[3] وهنا يتّضح أنّ كونه مدبّراً وربّاً متفرّع على كونه خالقاً.

---

١ . سورة لقمان : ٢٥ ؛ وهذا الإقرار متكرر كما في سورة العنكبوت : ٦١ ؛ وسورة الزمر : ٣٨ ؛ وسورة الزخرف : ٩.

٢ . سورة الطور : ٣٥ .

٣ . سورة طه : ٤٩ ـ ٥٠ .

وكيف لا يكون هو المدبّر، والحال أنّ الخالق محيط بما خَلَق ﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾.[١]

فالله تبارك وتعالى هو الخالق، وهذا توحيد في الخالقية، ويتفرّع عن كونه خالقاً أنّه مدبّر، وهذا توحيد له في الربوبية، ويتفرّع عن كونه مدبّراً كونه المعبود، وهذا توحيد العبودية، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾.[٢] فالرب هو الحقيق بالعبودية دون سواه. ويقول الله تعالى: ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى**﴾.[٣] والتسبيح ضرب من ضروب العبودية لله تعالى، وهو يعني تنزيهه تبارك وتعالى وتقديسه. والملاحظ هنا أنّ التعبير لم يكن سبِّح لله تعالى، بل كان التسبيح للربّ، ولماذا هو ربّ؟ قال: ﴿**الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى**﴾،[٤] فلمّا كان خالقاً فله الربوبية، ولما كان ربّاً فله وحده العبودية.

ويتفرّع على توحيد الربوبية لله تعالى توحيد الحاكمية؛ فإذا كان الله تبارك وتعالى ربّاً على مستوى التكوين فهو ربّ ومدبّر على مستوى التشريع.

فمن له الحكم؟ قال: ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ**﴾.[٥]

فمن يحكم ويدبّر على مستوى التكوين؟ يقول: ﴿**وَقَالَ يَا بَنِىَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِى عَنكُم مِّنَ اللهِ مِن شَىْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾.[٦] فمسألة أنّه يصيبهم حسد وما شاكل فهذا إنّما هو

١ . سورة الملك: ١٤ .
٢ . سورة البقرة : ٢١ .
٣ . سورة الأعلى : ١.
٤ . سورة الأعلى : ٢ ـ ٣.
٥ . سورة الأنعام : ٥٧.
٦. سورة يوسف : ٦٧.

بإذن الله تبارك وتعالى.

وإلى جانب ذلك يقول سبحانه فيما يرجع إلى مستوى التشريع: ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ**﴾.[1]

ويلزم أيضاً من كونه سبحانه حاكماً وأنّ الحكم له وحده أنّه هو الذي يلزم أن يطاع وأن لا يطاع غيره، وهذا ما يعرف بالتوحيد في مقام الطاعة، يقول الله سبحانه: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا**﴾[2]

هذه المعالم لابدَّ من أن نتجلاّها في حجّنا بعد معرفة كيف أنّها تجلّت في حجّه عليه السلام؟

إذن حجّ إبراهيم عليه السلام هو هجرة إلى الرب والمدبّر سبحانه. فأنا عندما أهاجر إليه، فذاك لأنّه يقوم على أمري ويدبّرني على مستوى التكوين والتشريع معاً؛ فهو مدبّري على مستوى التكوين بحيث لا أخلو من تدبيره لحظة، فحقيق أن لا أرى ولا أحبّ ولا أقدّم على تدبيره تدبيرَ غيره بل حتى تدبيرَ نفسي، وهذا إنّما يكون في النظر الصافي الصحيح.

وأما على مستوى التشريع فإنّ إبراهيم عليه السلام كان طوع أمره تعالى بحيث إنّه عليه السلام ما كان يحيد عن أمره ونهيه قيد أنملة، وسنتعرف ذلك إن شاء الله في العنوان السادس.

إذن تجلّى التوحيد في الربوبية من إبراهيم عليه السلام في تعريفه إيّانا بحجّه وأنّه عبارة عن هجرة إلى الربّ سبحانه.

وبعد هذا كلّه نسأل إبراهيم عن المنفعة التي يجنيها بهذا الحجّ إلى هذا الربّ. قال: ﴿**سَيَهْدِينِ**﴾، فهو عليه السلام ينشد الهداية من الله تبارك وتعالى عَبْر هذه الزيارة إلى الربّ تبارك وتعالى.

وكيف لا يجني هذه الهداية والله تبارك وتعالى يتحدّث عن بيته، ويقول: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ**

---

١. سورة يوسف : ٤٠ .

٢. سورة الأحزاب : ٣٦ .

بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾.[١] فهذا البيت مصدر بركة وهداية، بل يفيض بهما.

هذا فيما يرجع إلى ماهيّة حجّ إبراهيم عليه السلام، وأنّه هجرة إلى الربّ، لا أنّه هجرة إلى بيته فقط.

العنوان الثاني :

ما هو المشروع الإبراهيميّ؟

إبراهيم عليه السلام ما إن وطأت قدمه أرض الحجاز وتحديداً مكّة قبل أن تكون مكّة كذلك قال ـ كما حكاه الله تعالى على لسانه ـ : ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾.[٢]

فإلى زمان إبراهيم عليه السلام لم تكن مكّة مكاناً صالحاً للسكنى، فكان دعاؤه عليه السلام بأن يجعل هذا المكان بلداً فيه عدد من الامتيازات بحيث يرغب الناس في سكناه، ومنها أن يكون آمناً، وأن يرزق المؤمن من أهله من الثمرات.

وفي آية أخرى تتشابه في بعض التعابير: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ**﴾.[٣] ويتّضح من هذا الآية أنّ هذا الدعاء كان بعد أن صار بلداً؛ وذلك لتعريف البلد في الآية. ومن ثمّ قال: ﴿**رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ**

١. سورة آل عمران : ٩٦ .
٢. سورة البقرة : ١٢٦ .
٣. سورة إبراهيم : ٣٥ .

وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.[1] والتأكيد في هذه الآيات والّتي قبلها وبعدها على الربوبية لا يكاد يخفى؛ لكثرة تكرار قوله: ﴿**ربّ، ربنا**﴾.

ومشروع إبراهيم عندما نزل مكّة وقد صارت بلداً آمناً بعد دعائه هو: ﴿**رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ**﴾.[2]

ولكن هنا تساؤل وهو: من الّذي يقيم الصلاة؟

والجواب: هم بعض ذريّة إبراهيم، وحرف(**من**) يفيد ذلك، ﴿**مِنْ ذُرِّيَّتِي**﴾، وهذا يعني أنّ الناس يحتاجون إلى من يقيم لهم الصلاة.

فخلاصة المشروع الإبراهيميّ يكمن في إقامة الصلاة،[3] وأرضيّة هذا المشروع هو البلد الآمن الذي فيه الخيرات والثمرات، ومن أهمّ معوّقات وجود هذا المشروع هو عبادة الصنم﴿**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ**﴾، ودعامة هذا المشروع هم ذريّته عليه السلام، ولا يمكن لمشروع إبراهيم أن يستمر إلاّ بوجود هذه الذريّة، ورجوع الناس إليهم، فقال: ﴿**فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ**﴾، وهنا قال: تهوي إليهم، أي: إلى هذه الذريّة، ولم يقل تهوي إلى البيت أو الكعبة. ولابدّ من إلفات النظر إلى أنّ دعوة إبراهيم كانت دعوة عاقلة واقعية، حيث إنّه يعلم باستحالة انصياع كلّ الناس إليهم؛ نظراً لاختلاف معادنهم ومشاربهم، لذا قال: ﴿**أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ**﴾.

وذريّة إبراهيم المناط بهم إقامة الصلاة والذين هم دعامة إقامة الصلاة، والذين وُشِّجَ بينهم وبين من تقام لهم الصلاة بأن جعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، ولم تقتصر

---

١. ن. ف : ٣٧ .

٢. وهذا يعطينا أنّ في كلّ مشروع لابدّ من أن ينتهي إلى إقامة الصلاة لهذه الآية ولقوله تعالى في سورة الحجّ آية ٤١: ﴿**الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾. وإقامة الصلاة لا بمعنى أداء الصلاة.

٣. سيأتي أنّ من مشروعه الطواف أيضاً.

على إبراهيم وحده، بل سرى في ذرّيّته؛ لأنّ مشروعه ليس آنيّاً، بل هو مشروع مستمر حتى قيام الساعة، فهو يبدأ من إبراهيم مروراً بإسماعيل وهكذا حتى يعبر من خلال النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله والأئمة الطاهرين عليهم السلام، وانتهاءً بصاحب الأمر الإمام المهدي المنتظر عليه السلام، وهؤلاء هم صفوة أولاد إبراهيم من إسماعيل عليه السلام، وهؤلاء هم من جعل الله أفئدة من الناس تهوي إليهم؛ لضمان استمرار هذا المشروع. ولذا جاءت عددٌ من الآيات التي تؤكّد هذا المعنى حيث قال تعالى: ﴿**رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ**﴾، ولا يراد بإقامة الصلاة هي أداء الصلاة ولو بالصورة الجماعية المعبّر عنها بصلاة الجماعة، بل هي مشروع استثنائي يتقوّم بالإمامة بحيث إنّه بإقامته يقيم الناس الصلاة وينبعثون نحوها.

العنوان الثالث :

قيمة العمل

إنّ إبراهيم عليه السلام لمّا حلّ بجوار البيت كانت من وظائفه المناطة به من قبل الله تعالى أن يرفع قواعد البيت الحرام ـ لا أن يبنيه؛ لأنّه كان موجوداً، بل كان يُحجُّ إلى البيت قبل آدم بألفي عام،[1] ـ وهكذا كان بمعيّة ابنه إسماعيل.

وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾.[2]

ورفع القواعد من البيت فعلٌ عظيم جدّاً، لا يصحّ أن يقاس به بناء مسجد أو مأتم

---

١. في من لا يحضره الفقيه، للشيخ الصدوق ٢ : ٥١٩ ، باب نوادر الحج، ح١. روي عن بكير بن أعين، عن أخيه زرارة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلني الله فداك أسألك في الحجّ منذ أربعين عاماً فتفتيني، فقال: «**يا زرارة بيت يحج قبل آدم عليه السلام بألفي عام تريد أن تفنى مسائله في أربعين عاماً**».

٢. سورة البقرة : ١٢٧ .

أو دار للأيتام أو دار لمحتاج وما شاكل مما يراه الناس أموراً كبيرة ـ وهي كذلك عند الله ـ ، ومع عظيم فعله هذا إلاّ أنّه لم يرَ هذا الفعل شيئاً، بل لا يستحق الذكر أصلاً، كما نراه جليّاً في قوله: ﴿**رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا**﴾، حيث دعا ربّه بأن يتقبّل منه، ولم يذكر عمله؛ لأنّه لا يرى لعمله قيمة إلاّ بشيء واحد، وهو قبوله، وحيث لا يقبل فلا قيمة له، فالعمل حتى لو كان كبيراً لكنّه منقوص بل لا شيء ما دام لم يُقبل، وفي المقابل العمل المقبول حتى لو كان قليلاً فهو كثير، فهو عليه السلام يتمنّى على الله تعالى أن يكون هذا العمل مرفوعاً عنده، ومقبولاً لديه.

العنوان الرابع :

النداء الإبراهيميّ

إنّ إبراهيم عليه السلام بعد رفعه القواعد من البيت أمَرَه الله تعالى أن يؤذِّن في الناس بالحجّ، فقال سبحانه: ﴿**وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ**﴾.[1] فيا إبراهيم ارفع صوتك بالنداء مخاطباً الناس على مرّ العصور بالحجّ، وهذا الّذي كان، ومن يطيع ويستجيب سوف يأتي راجلاً سائراً على قدميه أو راكباً، ولن يأتي القريب فحسب، بل ﴿**مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ**﴾، أي: من الأماكن البعيدة جدّاً، وإذا لبّوا هذا النداء سيشهدون منافع لهم، وليذكروا الله في هذه الأيام المعلومة والمعدودة،[2] إلى أن يقول: ﴿**ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ**﴾.

فالنداء الإبراهيميّ كان لغرض أن يُحَجَّ البيت، وكان مشروعه ـ إلى جانب إقامة

---

١. سورة الحج : ٢٧ ـ ٢٩ .

٢. معلومات كما في سورة الحجّ في الآية ٢٨ : ﴿**وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ**﴾، معدودات كما في سورة البقرة في الآية ٢٠٣: ﴿**وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ**﴾.

الصلاة ـ أن يطاف بالبيت.

وإبراهيم عليه السلام وإن بنى البيت، وأذّن في الناس ليحجّوا البيت، إلاّ أنّ وظيفته لم تنتهِ، فمن وظائفه رعاية هذا المشروع والقيام عليه، لذا صدر التكليف من الله تعالى بهذا الأمر حيث قال: ﴿**وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**﴾.[1] وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿**وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**﴾.[2]

فإبراهيم عليه السلام لم يَنْتَهِ دوره ووظيفته بإقامة الصرح المبارك ورفع القواعد، ولا بالنداء في الناس بحجّه وزيارته، بل لابدّ من أن يقوم على هذا المشروع وأن يرعاه، وعلى حدّ تعبير القرآن أن يطهّره.

العنوان الخامس :

العامل الخالد

إنّ إبراهيم عليه السلام ما أراد من رفعه القواعد من البيت إلاّ وجه الله تبارك وتعالى، وكان تعامله معه سبحانه.

ولمّا رفع القواعد من البيت ما كان يرى عمله شيئاً ـ كما أسلفنا ـ ، فأراد الله تخليده عليه السلام وتخليد عمله، فقال: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ...**﴾،[3] فجعل الحَجَر ـ الذي كان مرتقى ومقام إبراهيم في بناء البيت ـ آيةً خالدة؛ لتكون علامة على إخلاص هذا العمل وشاهداً على ذلك حتى قيام الساعة، وأثر قدميه الطاهرتين لا يزال طابعاً على هذا الحجر. وسبب هذا

١. سورة البقرة : ١٢٥ .

٢. سورة الحج : ٢٦ .

٣. سورة آل عمران : ٩٦ ـ ٩٧ .

التخليد هو أنّه عليه السلام أضاف عمله إلى الله تعالى، وما رأى عمله شيئاً، ولم يقف الأمر عند تخليد الحجر، بل قال الله تعالى في التشريع لأمّة محمد صلى الله عليه وآله ﴿**...وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى..**﴾. وهذا يعني أنه تبارك وتعالى أراد أن يخلّد إبراهيم عليه السلام، بأن يصلّي الناسك إلى هذا المقام؛ حيث إنّ المكان الذي يُصلّى فيه يسمّى مصلّى، وكذا المكان الذي يصلى باتجاهه يسمّى مصلّى، فالكعبة مصلّى ومقام إبراهيم ـ وهو الآخر ـ مصلّى، فيصلّي الطائف إليه ـ لزاماً ـ بعد طوافه الواجب بأن يوسّط هذا المقام بينه وبين الكعبة، فيصلّي إليهما معاً.

العنوان السادس :

الرجاء الأكيد

إنّ السعي بين الصفا والمروة والتطوّف بهما ـ والّذي هو من شعائر الله، قال سبحانه: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ**﴾.[1] ـ هذا التطوّف الّذي أُلزمنا به هو تمثّلٌ لتطوّفٍ كريم في نفس هذا الموضع، هو تطوّف يراد منه تلقين النفس برجاء الله والثقة به وحسن الظنّ به، وهذا الصنيع تخليد للرجاء الصادق والأكيد لهاجر والدة إسماعيل، حيث تطوّفت لمرّاتٍ تؤمّل شيئاً تحيله الأسباب الطبيعيّة، ولكنّها انقطعت إلى الله تعالى، وانقطع رجاؤها عن جميع الأسباب الطبيعية؛ إذ رغم عدم وجود شيءٍ منها علّقت رجاءها وأملها بالله سبحانه، ولم يتسلّل القنوط واليأس إلى قلبها، هذا.

وفي الرواية عن محمّد بن عمر بن يزيد عن بعض أصحابه قال: كنت في ظهر (وراء) أبي الحسن موسى عليه السلام على الصفا وعلى المروة (أو على المروة) وهو لا يزيد على حرفين: «اللّهم إنّي أسألك حسن الظنّ بك في(على) كلّ حال، وصدق النيَّة في التوكُّل عليك».[2]

---

١. سورة البقرة : ١٥٨ .

٢. وسائل الشيعة ١٣ : ٤٨١ ب٥ من أبواب السعي، ح٦.

العنوان السابع :

لماذا الحجّ ؟

ما هي الغاية من الحجّ؟ فنحن إذا ما نظرنا إلى مناسك الحجّ فإنّا سنجدها كثيرة، من الإحرام والطواف وركعتيه والسعي والوقوفين والرمي والذبح، والحلق أو التقصير، فقد نبحث عن فلسفة كلّ عملٍ على حدة، وقد نبحث عن فلسفة مجموع أعمال الحج، فما هي العلّة أو الحكمة العامّة لمناسك الحج؟ وما الذي يريده الله منّا من خلال هذا النسك؟

يقول الله تعالى: ﴿**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الحجّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الحجّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**﴾.[1]

من ذهب إلى الحجّ وأكثر من العبادات وتزوّد منها، فطاف بالبيت ما شاء الله، وصلّى وختم القرآن وفعل غيرها من الأعمال ـ فإنّه لن يصل إلى عبادة إبليس؛ إذ قد عبد الله ستة آلاف سنة،[2] ولم تنفعه عبادته في ساعة الامتحان الإلهي وعندما طلب منه السجود لآدم عليه السلام؛ لأنّه كان يتصوّر أنّه يكفي أن يكون عابداً، والحال أنه لابدّ أن يكون عبداً.

فليس الهدف أن أكون عابداً، بل الهدف أن أكون عبداً، وإن كانت كثرة العبادة ممهّدة لأن أكون عبداً، لكنّها ليست هي الهدف الأخير.

وتبرز حالة العبودية إذا كان العبد ينصاع إلى مولاه تعالى حتى لو كان العمل المطلوب منه على خلاف هواه ومزاجه.

وقد برزت حالة العبودية عند إبراهيم عليه السلام عندما أمره الله تعالى بأن يذبح ابنه

---

١. سورة البقرة : ١٩٧.

٢. ففي نهج البلاغة: «فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس إذ أحبط عمله الطويل وجهده الجهيد، وكان قد عبد الله ستة آلاف سنة لا يدرى أمن سنيّ الدنيا أم سنيّ الآخرة ـ عن كبر ساعة واحدة». نهج البلاغة: ٣٨، ٣٩ (الخطبة القاصعة).

الوحيد الّذي طال انتظاره له، وذبحه المأمور به يشكّل تحدّياً لهواه، فهذا أمر الله تعالى بأن يذبح هذا الولد بيده والحال أنه طالما ترقّب وجوده لا سيّما وأنّ إسماعيل قد صار فتى ممّا يجعل الأب يؤمّل فيه الآمال ويعلّق به الأماني، إلاّ أنّ العبوديّة قد تجلّت في هذا الموقف من إبراهيم بأجلى صورها عندما انصاع إلى أمر الله تعالى من دون أدنى اعتراض، وما كان منه ومن إسماعيل إلاّ أن أسلما لأمر الله تعالى: ﴿**فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاء الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ**﴾، وهنا لم يتحقّق الذبح من إبراهيم، ولكنه عليه السلام اجتاز الاختبار الإلهيّ، وتجلّى مقام إبراهيم إلى نفسه، وإلى غيره.

لذا ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الله تبارك وتعالى اتخذ إبراهيمَ عبداً قبل أن يتخذه نبيّاً، وإنّ الله اتخذه نبيّاً قبل أن يتّخذه، رسولاً، وإنّ الله اتخذه رسولاً قبل أن يتّخذه خليلاً، وإنّ الله اتخذه خليلاً قبل أن يجعله إماماً، فلمّا جمع له الأشياء قال: ﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً**﴾ قال: فمن عظمها في عين إبراهيم قال: ﴿**وَمِنْ ذُرِّيَّتِي**﴾، قال: ﴿**لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾ قال: لا يكون السفيه إمام التقي».[1] وهنا مقام أعلى وهو أنّ الله تعالى اتخذ إبراهيم عبداً، ونَبَّهَه إلى نفسه من دون أن يدّعي إبراهيم كونه عبداً لله تعالى.

❁ ❁ ❁

١ . الكافي، للكليني ١ : ١٧٥، باب طبقات الأنبياء والرسل والأئمة عليهم السلام، ح٢ .

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ
مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا
تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ (البقرة 127)